آليات التماسك النصي ومظاهر انسجامه في التراث النقدي والبلاغي للباقلاني

د/ فتوح محمود
قسم الأدب العربي- جامعة حسيبة بن بوعلي-الشلف(الجزائر)
m.fettouh@univ-chlef.dz

الملخص:

أولى الباحثون منذ زمن بعيد بدراسة النص باعتباره يحتل مركزا مهما في الدراسات التي تهتم بتحليل الخطاب ونحو النص، للكشف عن التماسك الشديد بين أجزاءه المكونة لذلك النص، من رصد الآليات والأدوات والوسائل اللغوية التي تربط الكلمات والجمل لتصل إلى بنية كلية تحقق التماسك بين أجزاءه.

وتعد محاولة الباقلاني(ت403هـ) من بين أوائل المحاولات النقدية القديمة التي اهتمت بالنص بحد ذاته باعتباره وحدة متكاملة، وهي في نظره ميزة خاصة تميز بها القرآن الكريم، وعُرفت عنده بقضية النظم التي أعطت للنص المقدس مكانة محددة على غيره من النصوص الشعرية التي برع البشر في نظمها، وبرهن لذلك بمختلف الآليات والأدوات والوسائل اللغوية التي تدل على الانسجام والاتساق المعجمي والتماسك الشديد للنص المقدس باعتباره وحدة كلية متماسكة.

الكلمات المفتاحية: التماسك، الانسجام، النص، البلاغة، النقد، الباقلاني.

Résumé :

Les chercheurs ont longtemps prouvé de l'intérêt pour le texte. Ce dernier, a occupé une place primordiale dans les études qui analysent le discours et le texte, pour révéler la forte cohérence entre ses éléments constituants. Et ceci, en analysant les techniques, les connecteurs et les outils linguistiques reliant les mots et les phrases pour parvenir à une structure qui soit totalement cohérente entre les parties.

La tentative d'Al-Baqlani (403 AH) est l'une des premières tentatives critiques qui se sont concentrées sur le texte lui-même, en tant qu'unité intégrale. Il a traité la question des systèmes qui donnaient au coran une position spécifique sur d'autres textes poétiques qui excellaient dans leurs systèmes et démontraient les différents mécanismes, outils et moyens linguistiques qui reflètent l'harmonie, la cohérence du lexique et la stricte cohésion du texte sacré comme unité homogène.

Mots-clés : Cohésion, cohérence, texte, rhétorique, critique, Balaklani.

مقدمة:

تعدّ اللسانيات النصية من أحدث المدارس اللسانية التي تتعامل مع النص الأدبي في كليته، وتقوم منهجيتها في التحليل اللغوي على أساس تجاوز لسانيات الجملة التي تعدّ الجملة هي الوحدة اللغوية الكبرى إلى النص كوحدة كلية، فلسانيات النص ترى أن التحليل المحدود بسقف الجملة غير كاف للتصدي لجوانب نصية كثيرة، فمن غير الممكن أن تدرس الجملة بعيدا عن سياقها اللغوي المتمثل في النص أو البنية الدلالية الكبرى لجماع الجمل، وعلى هذا اجتذبت النصوص اللسانية النصوصية بناءا على نحو النص، الذي يشمل النص وسياقه وظروفه وفضاءاته ومعانيه المتعالقة، والإحالة القبلية والبعدية... وأشياء كثيرة تحيط بالنص.

وإن مصطلح التماسك النصي يعدّ مقولة جوهرية في مفاهيم اللسانيات النصية، ويحتل موقعا مركزيا في الأبحاث والدراسات المعاصرة التي تعني بتحليل النصوص، باعتباره يرمي إلى غاية بعيدة والذي ميزته الأساسية إثبات الاتساق والترابط على مستوى الدلالات، وذلك بتوظيف الآليات النحوية والعلاقات القائمة بين التصورات، والروابط اللغوية في

الربط بين أجزاء النص، والتي تجمعه في نسق واحد كوحدة متماسكة، وبالتالي فالتماسك لا يركز على ماذا يعني النص بقدر ما يركز على كيفية تركيب النص باعتباره صرحا دلاليا[1].

وإذا كان هذا المصطلح نال اهتمام الكثير من الباحثين في الدراسات النصية الغربية، من توضيح مفهومه وتحديد وسائله وعوامله وشروطه والسياق المحيط بالنص وعلاقته بالنص وانتهاء بوضع نماذج تحليلية توضح هذه الأمور كلها[2]، فإننا نجد الدراسات العربية عموما وبالأخص دراسات علوم القرآن تعدّ _في الحقيقة_ البداية الأولى والأصيلة لما أصبح يعرف بلسانيات النص، وذلك لاشتمالها على دراسة بعض القضايا النصية من مثل: التماسك، الحبك، السبك، الاتساق، التضام، التلاؤم، التكرار، المناسبة،...إلخ، وهي قضايا جوهرية في مباحث اللسانيات النصية.

ودراسات علوم القرآن كثيرة ومتنوعة في الطرح، وتستند إلى القرآن الكريم وتسهل فهمه على الوجه الصحيح، وقد نشأت لخدمة النص القرآني ومحاولة فهمه من خلال تقديم أدوات لقراءة النص القرآني، قراءة منضبطة بعيدة عن الغلو والانحراف.

ويسعى هذا البحث إلى محاولة فهم آليات ووسائل التماسك النصي في دراسات الباقلاني تنظيرا وتطبيقا، لما لهذا التراث الضخم الذي لا يزال قادرا على العطاء والتجدد في كل رؤية، حيث يمكن أن يكون التماسك النصي عنده وجها من وجوه الإعجاز، وهذا الاهتمام يكمن في دراسته للبناء الكلي للنص من خلال تقديم مقترحات على مستوى الآية ثم السورة ثم القرآن كله، وهذا ما يؤكد أن البناء الكلي للنص مسلمة راسخة عنده في التماسك الصوتي ثم التماسك على المستوى التركيبي وصولا إلى البناء الكلي للنص.

أولا: علاقة لسانيات النص بالتراث العربي:

معلوم أن النص يعدّ ركيزة أساسية للبحث في الدراسات اللسانية الحديثة والمعاصرة، لأنها تتخذ من النص محورا للتحليل اللساني، فهو يبدأ من النص وينتهي به، وقد عُرفت الدراسات التي تهتم بالنص باسم: علم النص أو لسانيات النص أو ما عرف باللسانيات النصية التي تهتم بنحو النص Text Grammar ، أو لسانيات الخطاب...، وكلها تتفق على تجاوز الجملة في التحليل البلاغي إلى الفضاء النصي، لأنه النص هو عبارة عن "نسيج من الكلمات يترابط بعضها ببعض، وهذه الخيوط تجمع عناصره المختلفة والمتباعدة في كل واحد"[3] متماسك.

وقد قامت الكثير من الدراسات الحديثة والمعاصرة في البحث عن جمال النص الأدبي من منطلق بلاغي قديم، وبخاصة لسانيات النص التي تعتمد على التحليل في التعامل مع النص الأدبي، بحيث كان "البحث في ممارسة الخطاب في البلاغة القديمة يضم عددا من النظرات والقواعد الخاصة بتنظيم نصوص محددة، إذ أنه قد استخدمت في المباحث المتعلقة بترتيب الأفكار وزخرفتها، قواعد بناء محددة للنصوص لأهداف بلاغية محددة"[4]، بالرغم أن المصطلحات لم تكن معروفة آنذاك، لكن المفاهيم كانت متداولة بينهم، و"لم يألفوا جمع تلك التحققات في مفهوم النص البنائي، بيد أن القدماء من اللسانيين البلاغيين قد أتيح لهم أن يلاحظوا تلك التحققات مقومات نصية جوهرية مشتركة، فضلا عما لاحظوه لكل منها"[5].

وقد أثبتت الكثير من الدراسات العربية والغربية مدى الصلة الوثيقة بين البلاغة العربية واللسانيات النصية، مثل ما نجده عند فان ديك الذي يقول:"إن البلاغة هي السابقة التاريخية لعلم النص إذا نحن أخذنا في الاعتبار توجهها العام، المتمثل في وصف النصوص وتحديد وظائفها المتعددة، لكننا نؤثر مصطلح علم النص، لأن كلمة بلاغة ترتبط حاليا بأشكال

أسلوبية خاصة، كما كانت ترتبط بوظائف الاتصال العام ووسائل الإقناع"[6]، ومن هنا نستنتج أن الأدوات والروابط والآليات التي تستعملها لسانيات النص في تحليل النص الأدبي مصدره من علم البلاغة العربية الذي أثبت جدارته في صنع الآليات والعوامل الحجاجية في التحليل النصي، وهذا ما يدل على التعالق والانسجام بين البلاغة العربية ولسانيات النص، لذا فالبلاغة تعدُّ سندا "معينا للآراء والاقتراحات التي طرحت فيما بعد، وبخاصة من النظريات الحديثة... فهي تضم الأفكار الجوهرية التي عنيت الدراسات النصية بالتوسع فيها، ومن ثم توجد جوانب اتفاق عدة بينهما إلى حد يصعب معه إغفال الأثر، حتى تكون درجة خفائه مرتفعة"[7].

ثانيا: قضايا التماسك النصي من منظور الباقلاني:

بما أن الباقلاني (ت403هـ) يُعدّ من أوائل علماء التراث من تنبّه إلى الممارسة النصية التي تهتم بالبناء الكلي للنص، وذلك عين ما نلمسه من خلال تحليله لنصوص كاملة، بحيث نجده لم يتوقف في التحليل عند الجملة، بل تجاوزت إلى النص كله كوحدة كلية متماسكة، وقد وردت في كتاباته أفكار أساسية تمثل بذور التحليل النصي، مثل: التكافؤ، وعجيب النظم، والتناسب، والتناسق، وحسن النظم، وبديع الرصف،...إلخ، وهذا شكل من أشكال التماسك النصي الذي يعدّ أساسا في مفهوم النص، فشرط النص وجود التماسك بين أجزاءه.

وانطلاقا من هذه المعطيات فالبحث يسعى جاهدا إلى توضيح العلاقة التي تربط بين النص والجملة، ثم معرفة وجوه التماسك النصي في التراث النقدي للباقلاني، وذكر أهم الآليات اللسانية التي وظفها في إثبات إعجاز القرآن الكريم، وذلك من خلال تسجيل أهم المصطلحات الدالة على هذا المعنى.

وإذا كان النص يشكل مفهوما مركزيا بين البلاغة ولسانيات النص، فإن البحث في النص القرآني كان سببا في نشأة وتطور علم البلاغة، ويعدّ الباقلاني من بين علماء الأشاعرة الذين كان لهم علو الكعب في الاهتمام بالبحث عن مضامين النص القرآني ومحاولة فهم جمال أسلوبه وروعة بيانه، متخذا من ذلك النص الشعري المتمثل في معلقة امرؤ القيس وقصيدة البحتري اللتان تعدان من أجود ما كتب العرب ومن عيون الشعر. في ذلك الوقت . وموازنته مع النص القرآني ليكشف الخلل والبون الشاسع الذي ينتاب نظم النص العربي، ومدى إعجاز نظم النص المقدس وتفرده بميزة الإعجاز وعلو شأنه ومكانته بين النصوص البشرية المنظومة، ومن هنا فالباقلاني يعتمد معرفيا في دراسته للآراء النقدية "على النص بصفته مصدرا من مصادر المعرفة المقدمة عنده على العقل"[8] حتى يكشف إعجاز نظم النص القرآني وبراعة تأليفه، واضطراب وتباين النص البشري.

بالرغم من أن مفهوم النص لم يكن حاضرا في الأعمال النقدية للباقلاني، إلا أن معناه كان موجودا من خلال الممارسة الفعلية في الموازنة بين النص القرآني ونظم النصوص البشرية، وهذا ما يدل على النظرة الثاقبة التي كان يمتلكها هذا العالم حينما تحدث عن النص القرآني بقوله:"إذا تأملته تبين بخروجه عن أصناف كلامهم وأساليب خطابهم، إنه خارج عن العادة وأنه معجز، وهذه خصوصية ترجع إلى جملة القرآن، وتميز حاصل في جميعه"[9]، والمعنى المتوخي من هذا أن الباقلاني كان على علم تام بمفهوم النص الذي كان عنده مرتبط بنظم الكلمات وسبك الجمل وجمال تراكيبها، على غرار الخطاب الذي كان يقصد به المنطوق الفعلي النص.

ويمكننا في هذه الوقفة أن نتعرف على طريقة الباقلاني في التحليل النصي للنصوص التراثية، انطلاقا من النص القرآني الذي يمثله عنده النموذج المميز في التحليل النصي والإعجاز المبهر في نظمه وجمال سبك ألفاظه وانسجام تراكيبه، وذلك بالوقوف عند مرتكزات التماسك النصي في التحليل من وجهة نظره:

أ. **بلاغة نص النظم القرآني:** لقد تعددت الأوجه الإعجازية التي ذكرها المفسرون وعلماء البلاغة والبيان، وفصلوا الحديث فيها، ويعدّ الإعجاز بالنظم الفريد والفصاحة الفذة الجارية على لسان البلغاء من بين الأوجه التي اهتمت بالنص في حد ذاته، وهي ميزة خُصت ببلاغة النص القرآني الفريد بألفاظه الفصيحة، ونظمه المحكم البديع، وهذا الإحكام في نظمه هو "أن تقع كل كلمة منه موقعها اللائق بها ، بحيث تكون كلماته متناسقة يأخذ بعضها برقاب بعض ، فلا يمكنك أن تضع يدك على كلمة وتقول : ليت هذه الكلمة تقدمت على تلك الكلمة أو تأخرت عنها "[10]

1- مفهوم النظم :إن معاني مصطلح النظم في اللغة تدور كلها حول معنى التأليف والاتساق والائتلاف والتضَّام والتناسب بين الأجزاء ، وهذا يعني أنه في وعي اللغويين لا يخرج عن التأليف وضم الأشياء بعضها إلى بعض[11]. أما في الاصطلاح: فهو تأليف الكلمات والجمل مترتبة المعاني متناسقة الدلالات على حسب ما يقتضيه العقل ، وقيل الألفاظ المترتبة المسوقة المعتبرة دلالاتها على ما يقتضيه العقل[12]، أو هو "بمعنى سبك الألفاظ وضمها بعضا إلى بعض في تأليف دقيق بينها وبين المعاني فيجريان معاً في سلاسة وعذوبة كالجدول ، لا تعثر ولا كُلفة ، ولا حوشي في اللفظ ولا زيادة ولا فضول[13]، وهذا النظم اختص به القرآن الكريم وقد قال فيه ابن فارس (ت395هـ):"هو أن تجيء الكلمة إلى جنب الكلمة كأنها في الظاهر معها ، وهي في الحقيقة غير متصلة بها"[14]، لأن طريقته في تأليف حروفه ونسج كلماته وسبكها مع أخواتها تصب في قالب واحد محكم، يدل على المعنى بأوضح عبارة في أعذب سياق وأجمل نظم .

ثالثا: خصائص تماسك النص القرآني: حفلت دراسة الباقلاني في تحليله للتلاحم البياني في سور القرآن بمزايا كثيرة تميز بها نظم النص القرآني، وهي عين السبك والانسجام في تماسك النص في الدرس اللساني الحديث، نُورِد بعضا منها:

أ. **مظاهر إنسجام النص:** تتعد الآليات التي استعملها الباقلاني في انسجام النص، منها:

- ✓ **تنزيل الخطاب (الترتيب):** وهو ترتيب الأشياء من الأعلى إلى الأدنى، وقد ذكره الشيخ أحمد الدمنهوري فقال:"والارتقاء الانتقال من الأدنى إلى الأعلى في الوجه المراد نحو: «لا أبالي بالوزير ولا بالسلطان»، والتنزيل عكس الترقي نحو:«هذا الأمر لا يعجز السلطان و لا الوزير»"[15].

ومصطلح (تنزيل الخطاب) أو (ترتيب الخطاب): هو"مظهر آخر من مظاهر انسجام الخطاب، يسميه فان ديك: الترتيب العادي للوقائع في الخطاب، ذلك أن ورود الوقائع في متتالية معينة يخضع لترتيب عادي تحكمه مبادئ مختلفة على رأسها معرفتنا للعالم"[16]، وقد استعمله الباقلاني وطبقه على النظم القرآني، وكان يريد به ترتيب المفردات في النظم القرآني على حسب المعنى المراد، من الأعلى إلى الأسفل، أو النزول بالموضوعات على حسب تدرج المعاني وأهميتها، من قمتها إلى أدناها.

وقد تناوله بحس الناقد الذواق، الذي استطاع أن يبلغ بفهمه الثاقب ذروة استيعابه لجمال النظم القرآني، فقام بتفكيك جزئياته، تفكيكاً دقيقاً، كاشفاً من خلاله مزايا النظم عن حُسن تمكن من قراءة النص القرآني في ترتيب موضوعاته على حسب الأهمية من قِمةِ الشيء إلى أسفله وبذلك استطاع أن يُقدم للنظم القرآني كل ما يستحق العناية والاهتمام، وبدأ منهجه التحليلي من سورة النساء في آية المحرمات من قوله تعالى:﴿**حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالاَتُكُمْ وَبَنَاتُ الأَخِ وَبَنَاتُ الأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللاَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللاَّتِي فِي**

حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ اللاَّتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلاَئِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلاَبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ الأُخْتَيْنِ إَلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللّهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً﴾[17]، وآية التحريم هنا معناها:"تحريم ما ذُكر من النساء، والنساء المحرمات على التأبيد ثلاثة أصناف: بالنسب وبالرضاع وبالمصاهرة "[18] .

والمتأمل في الآية بعمق نظر، يلحظ أنها قد استوعبت وحصرت كل الحالات المشار إليها في ترتيب ينظم درجات القرابة حسب أهميتها، وقد حدَّدَها في ثلاثة عشرة حالة، إذ نرى في "النص تصنيفاً للحالات المحرمة بدرجة القرابة العصبية والترتيب النزولي: الأم والبنت، والأخت وبنت الأخ وبنت الأخت من القرابة المباشرة _ المرضعة _ وأخت الرضاعة من القرابة، ولا يحل للمرء أن يتزوج أم امرأته، أو ابنتها أو أختها: فدرجة القرابة هنا مقيسة بالنسبة للمرأة. ويمكن أن نلحظ أيضاً في هذا التصنيف أفضلية رباط الأنثى، فابنة الأخ تذكر قبل ابنة الأخت، والقرابة المتصلة بالزواج قبل القرابة المتصلة بالزوجة مع أسبقية رباط المذكورة "[19].

ولاحظ الباقلاني ذلك الترتيب العجيب والنزول بالموضوعات على حسب تأدية المعنى وأهميته أمر جلي لا يحتاج إلى بيان في الآية، بقوله: "ونحن نعلم أنه ليس من القبيل الذي يمكن إظهار البراعة فيه، وإبانة الفصاحة عليه، وذلك يجري عندنا مجرى ما يحتاج إلى ذكره من الأسماء والألقاب، فلا يمكن إظهار البلاغة فيه، فطلبها في نحو هذا ضرب من الجهالة، بل الذي يعتبر في نحو ذلك « تنزيل الخطاب »، وظهور الحكمة في الترتيب والمعنى، وذلك حاصل في هذه الآية إن تأملت"[20] .

ولعظم قدر الأم وحُرمتها على أفراد عائلتها، كرمها الله بهذا المقام الشريف في المكانة العُليا باعتبارها أصل كل شيء، ووضعها القرآن الكريم من أولى المحرمات من النساء لمكان بعضيَّتها ثم نَزَلَ في التدرج بالتحريم، وصولا إلى الجمع بين الأختين، يقول في ذلك:"ألا ترى أنه بدأ بذكر الأم، لعظم حرمتها، وإدلائها بنفسها، ومكان بعْضِيَّتِها، فهي أصل كل من يُدلي بنفسه منهن؛ ولأنه ليس من ذوات الأنساب أقرب منها، ولما جاء في ذوات الأسباب، ألحق بها حُكمُ الأم من الرضاع ؛ لأن اللحم ينشره اللبن بما يغدوه، فيتحصَّل بذلك أيضاً لها حكم البَعْضِيَّةَ، فنشر الحُرمة بهذا المعنى، وألحقها بالوالدة . وذكر الأخوات من الرضاعة، فنَبَّه بها على كل من يُدْلي بغيرها، وجعلها تِلْوَ الأم من الرضاع "[21].

ثم ختم حديثه في التعليم لمجيء الآية على ما جاءت عليه، وأن هناك حكمة وسبباً اقتضاها مجيء كلمة في إثر أخرى، وواحدة بعد ثانية، بقوله:"والكلام في إظهار حكم هذه الآية وفوائدها يطول ... فلم تنفك هذه الآية من الحكم التي تَخْلُفُ حكمة الإعجاز في النظم والتأليف والفائدة التي تنوب مناب العدول عن البراعة في وجه التَّرصِيفِ"[22].

وترتيب الموضوعات أو تنزيل الخطاب لم يتوقف عند حَدِّ سورة واحدة أو سورتين، وإنَّما هو ممتد في القرآن كله، وقد نوَّه على ذلك بقوله:"بل فكر في جميع القرآن على هذا الترتيب وتدبَّرهُ على نحو هذا التنزيل، فلم ندَّعِ ما ادعيناه لبعضه، ولم نَصِفْ ما وصفنا إلا في كلِّه، وإن كانت الدلالة في البعض أبيَن وأظهر، والآية أكشف وأبْهَرَ"[23].

وبهذا الجهد المبذول في سبيل تبيان إعجاز نظم القرآن يختم كلامه بانهاره بهذا النظم البديع والتأليف العجيب في تنزيل الخطاب، بقوله:"وعلى هذا فقِسْ بحثك عن شرف الكلام، وما له من عُلو الشأن، لا يطلب مطلباً إلا انفتح، ولا يسلك قلباً إلا انشرح، ولا يذهب مذهباً إلا استنار وأضاء، ولا يضْرب مضرباً إلا بلغ فيه السماء، لا تقع منه على فائدة فقَدَّرْتَ أنها أقصى فوائدها إلا قَصَّرْتَ، ولا تظفر بحكمة فظننت أنها زُبدَةُ حكمها، إلا وأخلت"[24].

✓ **الخروج:** سمى العلماء القدامى هذا المصطلح بـ« التخلص» الذي هو: "انتقال الشاعر من فن إلى فن بمناسبة ظاهرة"[25] دون أن يشعر "السامع بالانتقال من المعنى الأول، إلا وقد وقع في الثاني لشدة الممازجة والملاءمة بينهما حتى كأنهما أفرغا في قالب واحد"[26].

والباقلاني سمى هذا المصطلح بمسميات مختلفة منها: «التنقل»، و«والتخلص»، و«الخلوص» و«التحول»، و«الاستطراد»، وغيرها، وكلها مصطلحات تصبُ في قالب واحد عنده، وهو «حُسن الخروج»، وتناوله في النظم القرآني، وعدَّه خاصية من خصائص أسلوبه الفذ وتصويره العجيب بالانتقال من معنى إلى معنى، أو من حالة إلى حالة انتقالا يُحرك النفس ويزيد من متابعة الخيال، دون أن يشعر المستمع بذلك الخروج الذي يخلُ بالموضوع بالتعثر والاضطراب، بل يزده متانة في النظم وجودةً في السبك، وكأنه أُفرغ في قالب واحد .

أما في كلام البليغ وإن أحسن وأجاد في الانتقال من غرض إلى غرض، فإن النقص والاضطراب سمة لا تفارق كلامه، ولا يستطيع دوما أن ينتقل من غرض إلى غرض "من غير أن يَبِيْن على كلامه إعياء الخروج والتنقل، أو يظهر على خطابه آثار التكلف والتَّعَمُّل"[27] .

فالشعراء مثلا إذا أرادوا أن يبحثوا في القصيدة الواحدة بمعانٍ مختلفة، فإنَّ التشتت والخلل سمة الأغراض المتنوعة في القصيدة، وإن اسْتُعْمِلَ أدوات التخلص لسد الثغرات مثل:«دع ذا» و«عد عن ذا»، "هذا شأن الأغراض المختلفة إذا تناولها الكلام الواحد، في المجلس الواحد، فكيف لو قد جيء بها في ظروف مختلفة، وأزمان متطاولة ؟ ألا تكون الصلة فيها أشد انقطاعا، والهوة بينها أعظم اتساعاً ؟ "[28].

وقد وصف الباقلاني هذا الخروج في كلام العرب بالانتقال من معنى إلى معنى، بقوله:"ألا ترى أن كثيرا من الشعراء قد وصف بالنقص عند التنقل من معنى إلى غيرة، والخروج من باب إلى سواه، حتى أن أهل الصنعة قد اتفقوا على تقصير البحتري مع جودة نظمه وحسن وصفه في الخروج من النسيب إلى المديح، وأطبقوا على أنه لا يحسنه، ولا يتأتى فيه بشيء، وإنَّمَا اتفق له في مواضع معدودة خروج يرتضى وتنقل يستحسن. وكذلك يختلف سبيل غيره عند الخروج من شيء إلى شيء، والتحول من باب إلى باب "[29].

فبتحليل الباقلاني للإعجاز البياني نجد مصطلح الخروج استعمله القرآن استعمالا راقيا حقق به مبدأ الإعجاز، وقد استطاع التدليل على ذلك في العديد من الآيات في القرآن الكريم، محققا جمالية الاستعمال، ودقة الانتقال دون انفصال. ومن أبز الشواهد التي وقف أمامها الباقلاني ليبرز جمالية «الخروج »، هي تلك الآيات الأولى من سورة الإسراء في قوله تعالى: ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ﴾[30].

إن القارئ العادي لهذه الآيات لأول مرة، والناظر إليها بسرعة خاطفة، يظن أن هناك تباعدا بين الأحداث التي تتناولها تلكم الآيات، وإن بدا هذا التباعد من الناحية اللفظية، إلا أننا نقول: إن المتدبر في الآيات والممعن في الألفاظ والمعاني التي تُؤديها، ينفي التباعد أو التنافر إطلاقاً، وتطمئن نفسه بوجود ارتباط وتضام بين الآيات، بحيث لا يشعر المستمع بفرجة الانتقال بين أحداث القصة في القرآن، وهذا هو مَكمن سر الإعجاز. وفي ذلك يقول الباقلاني :"هذا خروج لو كان في غير هذا الكلام لتَصور في صورة المنقطع، وقد تمثَّلَ في هذا النظم لبراعته وعجيب أمره، وموقع ما لا ينفك منه القول . وقد يتبرَّأُ الكلام المتصل بعضه من بعض، ويظهر عليه التَّثْبِيْج والتباين، للخلل الواقع في النظم "[31]، فالخروج في الآية الأولى مُباين عن

الثانية، إلا أن النظم القرآني أحكم شملهما في انتقال دقيق ومن يتمعن النظر فيه يجدهُ انتقالا تمَّ بين الاتساق في التعبير والاتساق في التصوير، وقال فيه: "وقد تصور هذا الفصل للطفه وصلاً، ولم يَبنْ عليه تميزُ الخروج"[32].

✓ **الاعتدال**: هول توسطُ حال بين حالين في كمٍّ وكيف، كقولهم: جسمُ معتدلُ بين الطول والقصر، وماء مُعتدل بين البارد والحار[33]. والاعتدال مبدأ جمالي كمي، يرجع إلى مدى تراكم الخصائص الأسلوبية في النص، ويرتبط بالحد الأوسط، وقد تناول الباقلاني هذا المصطلح من مبدأ تعادل نظم النص القرآني في الإعجاز في مواقع الآيات القصيرة والطويلة والمتوسطة، بخلاف الإفراط والإسراف الذي عُرف به مذهب الشعراء والأدباء على اختلاف مذاهبهم ومداركهم من قدماء ومحدثين لاستعمالهم للبديع، فقد "كان يقع ذلك في خلال قصائدها، ويتفق لها في البيت، على غير تعمد وقصد، فلما أفضى الشِّعر إلى المحدثين ورأوا مواقع تلك الأبيات من الغرابة والحسن وتَمَيُّزِها عن أخواتها في الرشاقة واللطف، تكلفوا الاحتذاء عليها فَسَمَّوهُ البديع، فمن محسن ومسيء، ومحمود ومذموم، ومقتصر ومُفرط"[34].

وفي نظم النص الحكيم، فإن مبدأ الاعتدال بين سوره وآياته سمة لا تفارقهُ، وميزة لم ينفرد بها غيره، وقد نَوَّهَ الباقلاني على ذلك بقوله: "فأجل الرأي سورة سورة وآية آية، وفاصلة فاصلة، وتدبر الخواتم والفواتح والبَوَادي والمقاطع، ومواضع الفصل والوصل، ومواضع التنقل والتحول، ثم اقض ما أنت قاضٍ"[35]، وهذه سمة خُصت القرآن وفردته عن غيره من كلام البشر، "وإن طال عليك تأمل الجميع، فاقتصر على سورة واحدة، أو على بعض سُوره "[36]، ولا يترك القارئ على وهمه وحيرة من أمره، وإنَّما يدعوه إلى النظر بسكون طائر و خفض جناح، وتفريغ لُبٍ، وجمع عقلٍ، في قوله تعالى: ﴿**إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ**﴾[37]، ويُبينُ من خلالها اعتدال النظم في الإعجاز، وحللها تحليلاً دقيقاً، واستنتج من خلالها على أنها "تشمل على ست كلمات، سنإها وضياؤها على ما ترى، وسلاستها وماؤها على ما تشاهد ورونقها على ما تعاين، وفصاحتها على ما تعرف. وهي تشملُ جملة وتفصيل، وجامعة وتفسيرا: ذكر العُلوَّ في الأرض باستضعاف الخلق بذبح الولدان وسبي النساء، وإذا تحكَّمَ في هذين الأمرين، فما ظنك بما دونهما ؟ لأن النفوس لا تطمئن على هذا الظلم، والقلوب لا تقرُ على هذا الجور"[38]، وبهذا يتضح لنا أن نظم نص القرآن يخالف نظم نصوص كلام الآدميين في الاعتدال في النظم لما يُؤدي إلى التكلف والإسراف وسآمة النفس في تلقيه.

ب. **الاتساق المعجمي**: هو مظهر من مظاهر التماسك النصي إلا أنه يختلف عنها، لأنه لا يبحث عن عنصر سابق أو عن شكلية للربط بين أجزاء النص، بل يبحث في مستوى المفردات، وتتعدد آلياته في تراث الباقلاني نذكر منها:

✓ **التكرار**:هو "شكل من أشكال الاتساق المعجمي يتطلب إعادة عنصر معجمي، أو ورود مرادف له أو شبه مرادف أو عنصرا مطلقا أو اسما عاما"[39]، ومعناه أن يأتي المتكلم بلفظ ثم يُعيده بعينه أو بمعناه في البيت أو العبارة لإحراز فائدة التأكيد، وتقريره في النفس، وهو من الأساليب الشائعة في العربية وفي القرآن الكريم، واستُعْمِلَ لحاجة المتكلم إلى تأكيد معناه، وتقريره في نفوس متلقيه، حتى "قيل : الكلام إذا تكرر تقرر"[40].

لقد اهتم علماء التراث بهذا المصطلح منذ القديم، وبخاصة مِمَّنْ تعاطوا صنعة الأدب ونقده، ثم ازدهر في ظل الدراسات القرآنية، وسبب ذلك ما ذكره الطاعنون في كتاب الله، فكان لزاما على من تصدى للرد عليهم أن يدرس هذا الأسلوب، وأن يُبين أسراره، وأن يُشير إلى نظيره من كلام العرب، والباقلاني من بين هؤلاء العلماء الذين تعرضوا له في معرض دفاعه عن القرآن الكريم من طرق القول ومآخذه عند العرب، مُبيناً بواعث مجيء القصص القرآني متناهي المعنى ومكررا، ولاحظ أن

هذا الأسلوب من "عادة العرب أن تكرر لِيُفهم عنها، ولِتَبْلغ إلى مُرادها، فمن ذلك قولهم : عَجِّلْ عَجِّلْ، ويقولون: أمرك بالوفاء وأنهاك عن الغدر، وأمر بالوفاء هو نهي عن الغدر"[41]، ونظيره من القرآن كثير، منها قوله تعالى:﴿**كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ**﴾[42]. والتكرار في هذه الآية :"أن اليُسر الثاني غير اليُسر الأول، بدليل تنكيره، والعسر الأول هو الثاني بدليل تعريفه باللام، وفي الحديث _عن عمر رضي الله عنه_:« لن يغلبَ عُسر يُسرين »[43].

وهذا الأسلوب من خصائص بلاغة النص القرآني؛ لأنه يُورد القصة الواحدة في أَوْفَى درجة من حُسن البيان، ثم يُعيدها في سورة أخرى على حسب ما يقتضيه المقام دون خلل أو اضطراب[44]، أما إذا وقع في نص كلام الناس، فإنه ينزل من درجة بلاغة القرآن، ويُخل بمقتضيات الفصاحة ويكتنف الكلام برودة وسماحة، مما يؤدي به إلى نفور النفس في قبوله، وهذا الأمر هو الذي دعا الباقلاني إلى تحليل التكرار الوارد في البيان البشري، وكانت جُلّ وقفاته حافلة برؤية سلبية، ترى التكرار في نص كلام البشر ما هو إلا ثقلا وزيادة يُستغنى عنها البيان، أما في القرآن الكريم، فنجد فيه بلاغة الإطناب الذي لا خلل ولا اضطراب في أساليب الخطاب؛ لأن كل كلام إذا كرر في موضوع واحد لم يحافظ على فصاحته الأولى، أما القرآن الكريم فصيح في كل تكراراته المتشابهة.

✓ **التناسب:** وعلم المناسبات هو:"علم تُعرف به منه علل ترتيب أجزائه، وهو سر البلاغة لأدائه إلى تحقيق مطابقة المعاني لما اقتضاه من الحال"[45]. أو هو: "ارتباط آي القرآن بعضها ببعض حتى يكون كالكلمة الواحدة، متسقة المعاني منتظمة المباني"[46]، وتناول الباقلاني هذا المصطلح من مبدأ أن سور القرآن الكريم لا يخلو من الترابط والتماسك والتآلف الذي ينسج مفرداته، وكأنه قطعة فنية واحدة محكمة الربط، فخمة النسج، أو كما قال فخر الدين الرازي (ت604هـ): "إن القرآن كله كالسورة الواحدة لاتصاله بعضه ببعض"[47]، بل هو كالآية الواحدة .

والتناسق والتناسب في الجملة القرآنية يعود بلا شك إلى طريقة اختيار الكلمة ووضعها الموقع المناسب، والتئامها مع أخواتها في الجملة أو التركيب "وحُسن جوارها لما قبلها وما بعدها من الكلمات، فإذا جافى بها الكاتب موضعها عدت قلقة نافرة أو مستكرهة، مقصورة على الموضع الذي زُجَّ بها فيه، وهذا مسلك جد لطيف ودقيق، فالأسلوب كالعقد النظيم يزداد رونقاً وجمالاً باختيار موضع الحبات والتنسيق البديع بين لون هذه وشكلها ولون ما قبلها وما بعدها"[48]، بحيث لو غُيِّرَت أو بُدِلَت لتغير المعنى، وذهب جمال النظم القرآني، و"يَبِينُ ذلك بأن تتصور هذه الكلمة مُضَمَّنَةً بين أضعاف كلام كثير، أو خطاب طويل، فتراها ما بينها تدل على نفسها، وتعلو على ما قُرِنَ بها، لِعُلُوِ جنسها، فإذا ضُمَّتْ إلى أخواتها، وجاءت في ذاتها أرَتْكَ القلائد منظومةٍ، كما كانت تُريكَ عند تأمل الأفراد منها اليواقيت منْثُورةً، والجواهر مبْثوثةً"[49].

وانطلق الباقلاني في تحليله لهذا المصطلح من خلال تركيزه على استخدام اللفظة من النظم القرآني في موقعها المناسب حسب المقام الذي وردت فيه، حيث إنك لو حاولت أن تضع لفظا آخر مكانه لم يتأد المعنى المراد، وهذا ما نراه في تحليله للفظة «لِيَأْخُذُوهُ» من قوله تعالى: ﴿**كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِن بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ**﴾[50]، قال:"وهل تقع في الحسن موقع قوله «لِيَأْخُذُوهُ» كلمة ؟ وهل تقع مقامه في الجزالة لفظةٌ؟ وهل يسُدُ مسده في الأصالة نكتةُ ؟ لو وضع موضع ذلك «ليقتلوه» أو«ليرجموه» أو«لينفوه» أو«ليطردوه» أو «ليهلكوه» أو «ليذلوه»، ونحو هذا، ما كان ذلك بديعاً، ولا بارعاً، ولا عجيباً، ولا بالغاً"[51]. فكلمة «لِيَأْخُذُوهُ» أدت من المعاني ما لا تؤديه هذه الكلمات، فهي لفظة بديعة بارعة وعجيبة التأليف، حيث شملت معاني كل هذه الألفاظ، ففيها معنى القتل والرجم والنفي والطرد والهلاك والإذلال، وغيرها من المعاني، وهذا ما يدل على الدقة الدلالية في التعبير داخل النص المقدس، بُغية الوصول إلى مدى بلاغة الكلمة القرآنية واكتفائها بالمعنى المراد دون غيرها من الألفاظ، وعليه

فإن التناسب بهذا المعنى هو وسيلة للتأثير في المتلقي نظرا لما يضفيه على النص من أبعاد جمالية أو هو بالأحرى "مبدأ جمالي يحتكم إليه الأسلوب أحياناً كثيرة، ويشتمل على مقاييس عِدَّة تخص الألفاظ والمعاني والتراكيب، والهيكل الكلي للنص"[52] القرآني .

✓ **الرَّصف(التضام)**: هو ضم الشيء بعضه إلى بعض ونظمه . رصفه يرصُفه رصفاً فارتصفَ. وتراصف القوم في الصف: قام بعضهم إلى بعض . ورصف مابين رجليه: قرَّبهما [53].

زخرت مؤلفات الباقلاني باستعمال هذا المصطلح في الكثير من المواضع دون أن يُعرفه، وقد تعرض له قبله أبو هلال العسكري (ت395هـ)، حيث وَضَّحَ معالم خصائص حُسنه، ومزايا بهائه، بقوله: "وحُسن الرصف أن توضع الألفاظ في مواضعها، وتمكن في أماكنها، ولا يستعمل فيها التقديم والتأخير والحذف والزيادة، إلا حذفاً لا يفسد الكلام، ولا يعمي المعنى، ويضم كل لفظة منها إلى شكلها، وتضاف إلى لفقها، وسوء الرصف تقديم ما ينبغي تأخيره منها، وصرفها عن وجوهها، وتغيير صيغتها، ومخالفة الاستعمال في نظمها "[54].

فالرَّصف عند العسكري _ في هذا المقام _ هو حُسن التأليف وجودة التركيب، وذلك أن حُسن التأليف يزيد المعنى وضوحاً وشرحاً، وسوء التأليف ورداءة الرَّصف والتركيب يؤدي إلى معاظلة في الكلام ورداءته، فلا تظهر عليه حلاوة ولا طلاوة، والباقلاني أخذ هذا المصطلح عن أبي هلال _ الذي تناوله في الشعر العربي _، وطبقه هو على النظم القرآني، ولاحظ أن الشعر العربي فيه خلل وتفاوت بين الشعراء؛ لأن منهم "من يجود في المدح دون الهجو، ومنهم من يبرز في الهجو دون المدح، ومنهم من يسبق في التقريظ دون التأبين، ومنهم من يجود في التأبين دون التقريظ...، ولذلك ضرب المثل بامرئ القيس إذا ركب، والنابغة إذا رهب، وبزهير إذا رغب، ومثل ذلك يختلف في الخطب والرسائل وسائر أجناس الكلام. ومتى تأملت شعر الشاعر البليغ، رأيت التفاوت في شعره على حسب الأحوال التي يتصرف فيها، فيأتي بالغاية في البراعة في المعنى، فإذا جاء إلى غيره قَصُر عنه، ووقف دونه، وبان الاختلاف على شعره"[55] .

أما نظم القرآن فجميع ما تصرف فيه من الوجوه، فهو على حد واحد في حُسن النظم وبديع التأليف والرَّصف، لا تفاوت فيه ولا انحطاط عن المنزلة العليا، ولا إسفاف فيه إلى المرتبة الدنيا ؛ لأن المتأمل في "نهج القرآن ونظمه، وتأليفه ورَصْفه، فإن العقول تتيه في جهته، وتحار في بحره، وتضلُّ دون وصفه "[56] .

وقد وَضَّح الرَّصف وحسن التأليف وجودة التركيب بتطبيقه على آيات كثيرة من الذكر الحكيم، واقفاً من خلالها على أن الإعجاز ليس في الحروف ولا في جمعها وضمها إلى بعضها كيفما جاءت، "وإنَّما هو في نظمها وإحكام رصفها "[57]، نقتصرُ في هذا المقام على آية من سورة الشورى من قوله تعالى:﴿**وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاء مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾[58]، والذي ودعانا من خلالها إلى تفريغ الفكر، وتخلية البال، والنظر في هذه الآية بسكون طائر، بقوله: "فانظر_ إن شئت _ إلى شريف هذا النظم، وبديع هذا التأليف، وعظيم هذا الرَّصف ؛ كل كلمة من هذه الآية تامة، وكلُّ لفظ بديع واقع، فالباقلاني في تناوله لهذه الآية الكريمة، بَيَّنَ من خلالها الرَّصف الذي كان يقصد به حُسن التأليف وجودة النظم و التركيب، ولاحظ أن النظم الحكيم يتميز بجودة التركيب، وحُسن الرصف في نسج ألفاظه بِحُلَّة "لا قُدرة لأحد من الخلق على تأليف مثله، ولا سورة منه، أو آية بقدر سورة"[59]، على خلاف الشعر الذي لاحظ فيه رداءة في الرصف، وضعفا في التركيب.

✓ **تأليف المختلف:** هو: "الجمع بين أمرين أو أمور متناسبة لا على جهة التضاد"[60]، أو"هو: أن يجمع بين ممدوحين بمعان مؤتلفة في مدحها، ثم يريد ترجيح أحدهما على الآخر، فيأتي بمعان تخالف معاني التسوية، بحيث لا ينقض الممدوح الآخر"[61]، وقد استعمل الباقلاني هذا المصطلح في تحليله للتلاحم البياني لسور القرآني، وأراد به النظر في آي الذكر الحكيم، وكيف كانت الجملة القرآنية الواحدة تؤدي بذاتها المعنى المراد، وإذا انضمت هذه الجملة القرآنية مع بعضها لآخر، كيف يكون المعنى الإجمالي للنظم في النص القرآني ؟

إن المتتبع في الذكر الحكيم يجد الانفصال ظاهرا في بعض جمله، بحيث نجد كل جملة مستقلة في المعنى بذاتها، ومستوفية الغرض في مكانها، ولكن إذا انضمت هذه الجمل القرآنية بعضها إلى بعض ازداد رونقا وجمالا، على الرغم من الاختلاف في المعنى، ويصبح هذا النص لُحمة واحدة، يؤدي المعنى تاما مستوفيا الجمال البلاغي ومُعطيا للنص القرآني رونقا وبهاء، وهذه ميزة تميز بها النظم الحكيم، وقَصُرَ عنها العربي البليغ ؛ لأنه مهما بلغ من العلم في البيان والبراعة، لا يستطيع تأليف جمل مبنية على المعاني المختلفة والمؤتلفة مستوفية الغرض، في قالب واحد محكم السبك؛ لأن المعاني كلما تَغَازرت ازدادت صعوبة، وظهر التكلُّف والتعسُّف والتفاوت بادياً على جمله، أما كلام الله تعالى منزه عن ذلك؛ لأن"القرآن على اختلاف فنونه وما يتصرف فيه من الوجوه الكثيرة، والطرق المختلفة يجعل المختلف كالمؤتلف، والمتباين كالمتناسب، والمتنافر في الأفراد إلى حد الآحاد"[62] .

ونحاول في هذا المقام أن نُبَيّن طريقة الباقلاني في الكشف عن مزايا نظم النص القرآني، وبراعته في مصطلح تأليف المختلف . من ذلك وقوفه عند قوله تعالى:﴿ **وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ**﴾[63]، وعلق عليها بقوله:"وهي خمس كلمات متباعدة في المواقع نائية المطارح قد جعلها النظم البديع أشدُ تآلفاً من الشيء المؤتلف في الأصل، وأحسن توافقا من المتطابق في أول الوضع"[64] .

ففي هذه الجمل الخمس يصف لنا الباقلاني أن استقلالية كل جملة عن غيرها، فهي متباعدة في المواقع، ونائية في المطارح، أي إن كل جملة تُمثلُ نوعا مستقلا من المعنى وتؤديه على أكمل وجه، فمثلاً الجملة الأولى حَضَّ على ابتغاء آخرته فيما رزقه الله، والثانية معناها "لا تُضَيِع عمرك في ألا تعمل عملا صالحا في دُنياك، إذ الآخرة إنَّما يُعْمَلُ لها في الدُنيا، فنصيب الإنسان عمره وعمله الصالح فيما ينبغي أن لا يُهْمِلَهُ"[65]، والجملة الثالثة في قوله: «وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ»، مع قوله:«وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ »، هما حقيقة واحدة هي الإحسان النائي عن ابتغاء الفساد في الأرض والرافض له، أما الخامسة:« إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ »، فهي فاصلة جامعة بين كل هذه الصفات، من خلال هذه الجمل المتباعدة في المواقع والمستقلة في المعاني، نستنتج أن النظم البديع جعلها أشدُّ تلاؤما وتلاحما وتآلفا في أحسن تركيب وأجود معنى .

✓ **الفصل والوصل:** سعى الباقلاني حاهدا إلى الكشف عن بعض الأسرار البلاغية واللطائف العجيبة لهذا المصطلح في القرآن الكريم ، وفي النصوص الأدبية ، الشعرية والنثرية منها، ففي القرآن الكريم أنعم النظر بوعي العقل الثاقب في مفردات الجملة، وتأمل كيف يتم الربط بينها، ونظر بوعي عميق في العلاقات بين الجمل، وكيف يتصل بعضها ببعض، وكيف تنفصل دون أن يظهر على الكلام آثار التثبيج، فاستنتج أن هذه الميزة خُصتْ النظم القرآني، وعَدَّهَا سرا من أسرار الإعجاز البياني، الذي يكمن وراء نظم المفردات والجمل في آيات الذكر الحكيم.

فوقف على العديد من أمثلته، لتبيين الفصل والوصل بين آياته، دون أن يظهر عليها إعياء الخروج والتنقل، وآثار التثبيج، وَوَضَحَ فكرته في قوله تعالى:﴿**صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأُمُورُ**﴾[66] ،

قال:"فانظر إلى هذه الكلمات الثلاث: فالكلمتان الأوليان مُؤْتلفتَان ، وقوله: «**أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأُمُورُ**» كلمة منفصلة مُباينة للأولى، قد صيَّرهُما شريف النظم أشدَّ ائتلافا من الكلام المؤالِف، وألطف انتظاما من الحديث الملائم, وبهذا يتبين فضل الكلام، وتظهر فصاحته وبلاغته، الأمر أظهر_ والحمد لله _ والحال أبين من أن يحتاج إلى كشف"[67].

وفي الخاتمة نقول: إذا كانت اللسانيات النصية في الدرس الحديث قد أولت الأهمية إلى النص على عاتق الجملة باعتباره النسق الذي يجعل التماسك الشديد بين أجزاء المشكّلة للنص، فإن لعلماء التراث يد بيضاء في تخريج النص في قالب مترابط ومتماسك، وبالأخص العالم الجليل ولسان الأمة النحرير الباقلاني، الذي أولى عناية كبيرة للدراسات الأسلوبية وأعطى أهمية بالغة للنص القرآني، وذلك بعدّه اللحمة التي تجعل من قضاياه برهانا معجزا في شكل قالب واحد هو النظم الذي شمل التماسك النصي العجيب، والذي فاق به قدرة البشر، فهو يعلو ولا يُعلى عليه، وبالتالي فقد أعطت دراسته للنص القرآني بعدا متماسكا، من حيث النسيج والتركيب والاتساق والسبك والرصف والتضام والنظم العجيب الذي يدل على وحدة كلية متكاملة للنص، وهذا ما يدل على أن هناك علاقة وثيقة بين الجهود العربية القديمة في دراسة نصوص التراث العربي ولسانيات النص في قراءة الإبداع الإنتاج برؤية مستجدة وفق آليات التماسك والانسجام والاتساق النصي.

هوامش البحث:

[1] Halliday et hassan, cohesion in English, longman, landon, p26

[2] ينظر: جمعان عبد الكريم: مفهوم التماسك وأهميته في الدراسات النصية، مجلة علامات، النادي الثقافي الأدبي بجدة السعودية، ج61، مج16، مايو 2007م، ص209.

[3] الأزهر زناد: نسيج النص، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب، دط، 1993م، ص12.

[4] سعيد حسن بحيري: علم لغة النص، المفاهيم والاتجاهات، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة مصر، ط1، 2004م، ص20.

[5] محمد العبد: النص والخطاب والاتصال، الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي، القاهرة مصر، ط1، 2005، ص100

[6] سعيد حسن بحيري: علم لغة النص، المفاهيم والاتجاهات، ص20.

[7] سعيد حسن بحيري: علم لغة النص، المفاهيم والاتجاهات، ص143.144.

[8] أحمد يوسف علي: قراءة النص في الموروث النقدي، مكتبة الآداب القاهرة مصر، ط2، 2008م، ص211.

[9] إعجاز القرآن، ص35.

[10] - حُسين محمد الخضر: بلاغة القرآن، ص07 .

[11] - ينظر: الزمخشري : أساس البلاغة، ص860 .

[12] - السيد الشريف الجرجاني : التعريفات ، ص238 .

[13] - محمد زغلول سلام : أثر القرآن في تطور النقد العربي ، ص 108 .

[14] - الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، ص 186 .

[15] - حلية اللب المصون على الجوهر المكنون على هامش شرح عقود الجمان، ص171 .

[16] - محمد خطابي: لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب،المركز الثقافي العربي، المغرب، ط2، 2006، ص38

[17] - سورة النساء، الآية 23 .

[18] - ابن جزي الكلبي: التسهيل لعلوم التنزيل، ص182 .

[19]- مالك بن نبي: الظاهرة القرآنية، ص184-185 .

[20]- إعجاز القرآن، ص207 .

[21]- المصدر نفسه، ص207-208 .

[22]- نفسه، ص208 .

[23]- نفسه، ص202 .

[24]- نفسه، ص211 .

[25]- زكي مبارك: الموازنة بين الشعراء، ص185 .

[26]- شمس الدين محمد بن الحسن المعروف بالنواجي: مقدمة في صناعة النظم والنثر، ص59 .

[27]- إعجاز القرآن، ص191 .

[28]- عبد الله دراز: النبأ العظيم، ص144 .

[29]- إعجاز القرآن، ص38 .

[30]- سورة الإسراء، الآية 1-4 .

[31]- إعجاز القرآن، ص209، 210 .

[32]- نفسه، ص210 .

[33]- ابن منظور: لسان العرب، مج11، ج11، ص518 .

[34]- القاضي الجرجاني: الوساطة، ص34 .

[35]- إعجاز القرآن، ص193 .

[36]- نفسه، ص193 .

[37]- سورة القصص، الآية 04 .

[38]- إعجاز القرآن، ص193 .

[39]- الخطابي: لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب، ص24.

[40]- الزركشي : البرهان في علوم القرآن، ج1، ص 10 .

[41]- نكت الإنتصار لنقل القرآن، ص212.

[42]- سورة الشرح، الآية 5-6 .

[43]- ابن جماعة الكناني : كشف المعاني في متشابه المثاني، ص 155 .

[44]- ينظر: الباقلاني: إعجاز القرآن، ص 190 .

[45]- البقاعي: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، بغداد، ط1، 1389هـ/1969م، ج1، ص06 .

[46]- السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، ج2، ص452 . وينظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، ج1 ، ص07.

[47]- التفسير الكبير، مج15، ج30، ص199 .

[48]- عبد العظيم إبراهيم محمد المطعني: علم الأسلوب في الدراسات الأدبية والنقدية، ص108 .

[49]- إعجاز القرآن

، ص205 .

[50]- سورة غافر، الآية 05 .

[51]- إعجاز القرآن، ص197 .

[52]- سامي محمد عباينة: التفكير الأسلوبي رؤية معاصرة في التراث النقدي والبلاغي في ضوء علم الأسلوب الحديث، ص294

[53]- ابن منظور: لسان العرب، مج9، ج9، ص144 .

[54]- كتاب الصناعتين، ص179 .

[55]- إعجاز القرآن، ص36-37 .

[56]- نفسه، ص183 .

[57]- تمهيد الأوائل في تلخيص الدلائل، ص91 .

[58]- سورة الشورى، الآية 52 .

[59]- نكت الإنتصار لنقل القرآن، ص59 .

[60]- بدوي طبانة: معجم البلاغة العربية، ص261 .

[61]- بهاء الدين السبكي: عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، مج2، ج4، ص401 .

[62]- إعجاز القرآن، ص38 .

[63]- سورة القصص، الآية 77 .

[64]- إعجاز القرآن، ص194 .

[65]- عبد الرحمن الثعالبي المالكي: تفسير الثعالبي المسمى بالجواهر الحسان في تفسير القرآن، ج4، ص283 .

[66]- سورة الشورى ، الآية 53 .

[67]- إعجاز القرآن ، ص187 .